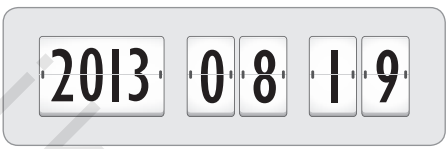

قبيل موعد مغادرتي إلى واشنطن، اقتحمتْ سكرتيرتي الجنية ريفكا مكتبي المانهاتني بوجه يجسد جوهر الدهشة. أستطيع دائمًا أن أدرك من تعبير ريفكا ما إذا كان المريض الجديد الذي ينتظرني مثيرًا لي أم لا. وفي هذه المرة، لم يسبق لي أن رأيتها على هذه الدرجة من الذهول كما أراها اليوم، حتى حين أوصلت مارلين مونرو قبل عشر سنوات. تساءلت: ومن يمكنه أن يكون أكثر إثارة للدهشة من مارلين مونرو؟

قالت ريفكا: لن أخبرك عن الذي ينتظرك؛ أريد أن أفاجئك؛ صدقيني ستفاجئين، قلت في نفسي غير مبالية: إنني سأكتشف بعد قليل، عازفة عن منح ريفكا فرصة الارتياح إزاء معرفة أنها قد نجحت فعلًا في إثارة فضولي.

مشيت إلى داخل غرفة الانتظار، ألقيت نظرة على الشخص الوحيد الجالس هناك، وكدت أشهق؛ هيلاري رودهام كلنتون بالذات جالسة هناك.

يا للمصادفة! فكرت. إلا أن يونغ* بادرني قائلًا: ليس ثمة أي مصادفات، ربما شاء القدر أن نلتقي. (يا له من قدر جميل).

* كارل جوستاف يونغ عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي، (1875ـ1961م).

كانت تبكي وتذرف دموعها في منديلها، حين رأتني حاولت إخفاء دموعها متظاهرة بأنها كانت تنظف أنفها.

للإحاطة بمظهرها كله، منحتها بعض الوقت للتعافي، فوجئت إذ وجدتها جميلة تمامًا، أفضل بكثير مما تبدو في الصور.

ممعنة النظر إليها في مثل هذه الأجواء الحميمية، استطعت أن أرى أنها صاحبة هيكل عظمي جيد، أسنان بيضاء لطيفة، وبشرة جميلة، شعرها الأشقر الواصل إلى الكتف ملفوف النهايات لفة ناعمة.

كنت قد قرأت في مكان ما أنها بطول (خمس أقدام وأربع بوصات) (165سم) ووزن (115) رطلًا (أي نحو 52 كغ)، ودائبة على متابعة وضعها بانتظام لتحافظ على هيئتها. (115) رطلًا؟ ربما كنت قد خمنت (130)، لعلها كذبة بيضاء صغيرة، وقد تكون أخف مما تبدو، لم لا؟

ولأن ملابسها كثيرًا ما تعرضت لأحكام قاسية منذ ظهورها بعصابة رأسها المخملية على شاشة برنامج ستون دقيقة عام 1992م، باغتني أن ألاحظ أنها كانت مرتدية زيًّا متقنًا، وإن كان عاديًّا؛ سترة فضفاضة كحلية بأزرار ذهبية شبيهة بقرطيها، وتحت السترة كانت ترتدي كنزة كشميرية سماوية اللون ذات ياقة عالية متناسبة مئة بالمئة مع عينيها الزرقاوين الطفوليتين. (اكتشفت لاحقًا أنهما كانتا زرقاوين بسبب العدستين اللاصقتين الزرقاوين). من مظهرها كان بوسعها أن تكون سيدة مجتمع نيويوركية أنجزت مهماتها التسوقية في محلات بيرغدورف.

متقدمة نحوها قلت: سعيدة أنا بلقائك شخصيًّا سيدة كلنتون. غير أني آسفة أن أراك مكتئبة إلى هذا الحد. انتصبتْ واقفة وبادرت فورًا إلى مد يدها. وكما توقعت فإن مصافحتها كانت ثابتة وقوية.

آسفة بسبب الدموع، غير أن أي امرأة حين تجد زوجها بادئًا للتوقصة غرامية جديدة، ستبكي أيضًا كما أتخيل. قالت وهي تنظر بشراسة إلى عيني، ثم أضافت : اكتشفت أن له عشيقة في تشاباكوا، حيث نملك بيتًا في نيويورك. ولزيادة الطين بلة، أنا متعبة تمامًا؛ بعد أن عملت وزيرة للخارجية بهذا الزخم والجدية، ظننت أنني سأحصل أخيرًا على لحظة راحة للنقاهة.

أجبتها متعاطفة بقوة – يقينًا كنت سأبكي أيضًا– : لكن تعالي ندخل إلى مكتبي حيث تستطيعين أن تحدثيني عن نفسك.

قالت: أظن أنك تعرفين كل شيء عني سلفًا من وسائل الإعلام.

قلت: وسائل الإعلام وأنا مختلفان في تفسير الوقائع المزعومة.

ابتسمت وقالت: يمكننا أن نتابع إذن.

دخلنا مكتبي. لم تتلفت هيلاري حولها بل جلست على الكرسي المقابل لمكتبي وراحت تعاين عقد أصابعها باهتمام. لم أكتشف إلا مؤخرًا أنها لم تغفل عن أي شيء في الغرفة وديكورها.

حسنًا، من أين سأبدأ يا دكتورة؟ من القصة الغرامية الجديدة؟

ليس مباشرة يا هيلاري، هل أستطيع مخاطبتك باسمك الأول؛ هيلاري؟ ربما ما كنت تجرأت على مخاطبة السيدة الأولى السابقة باسمها الأول، غير أن تلك هي طريقتي مع المرضى (الزبائن)، قررت ألا أعاملها بأسلوب مغاير. يسجل لها أنها أومأت موافقة، كما لو لم تكن تتوقع أي شيء آخر. لنبدأ حيث بدأت حياتك، بدايتها بالذات.

هل ذلك ضروري؟ جئت إلى هنا بسبب المشكلة مع زوجي، وأنا امرأة مشغولة، ليس لدي وقت أبدده.

obeikandi.com

صدقيني، أنا كاملة الإدراك لذلك؛ غير أن علينا أن نفهم جذر المشكلة ومكانها في حياتك كي نفهمها، ولماذا حصلت في الوقت الحاضر، لا بد لي من معرفة المزيد عنك قبل أن أتمكن من مساعدتك في التغلب على الصعوبات التي دفعتك إلى هنا، كذلك أنا شديدة الاهتمام بما قلته عن كونك مرهقة بعد شغلك لمنصب وزارة الخارجية. عدَّلت جلستي ورحت أنتظر.

بقيت هيلاري صامتة للحظات طويلة، منخرطة على ما بدا في نوع من الصراع الداخلي.

شعرت بالأسف عن هذه المرأة المرموقة التي كانت تجد قدرًا كبيرًا من الصعوبة في الكلام عن عواطف كانت ذات شأن بالنسبة إليها.

أخيرًا قلت: حدثيني عن نفسك؛ حتى ما تعدينه غير مهم بنظرك، قولي ما يخطر ببالك تمامًا.

ترددتْ، ثم قالت: ليس ذلك سهلًا علي؛ أجد الكلام عن نفسي صعبًا، وحين أتحدث عن شخصي أتجمد. لدى اضطراري إلى إجراء المقابلات أجد أن من الأسهل مناقشة موضوعات مثل الفقر في بورما، سوء معاملة الأطفال، أو التحامل على النساء، بل إنني حتى لا أفكر بمشاعري كثيرًا، كذلك من غير العادي أن أبكي أمام آخرين، لا سيما إذا كانوا ممن لا أعرفهم.

تصورت بابًا عليه عدد من الأقفال الثقيلة، وأنا دائبة على طرقه من دون نجاح؛ فكرت: قد تكون امرأة رائعة، لكن بُنْية شخصيتها ستجعلها –يقينًا– مريضة (زبونة) صعبة. أتذكر أنني قرأت في مكان ما أن جريدة مدرستها الثانوية منحتها لقب (الأخت ثلاجة). أعرف المغزى؛ فالناس شديدو الانغلاق على مشاعرهم بهذه القوة كثيرًا ما تتعذر معرفتهم.

ربما هي عصية على المعالجة، ويتعين علي ألا أوافق على استقبالها، لن أستطيع أبدًا أن أسامح نفسي إذا ما قبلت شخصًا بهذه الأهمية للتحليل النفسي

obeikandl.com

وأخفقت في مساعدته. مهما يكن، إذا استطعت فسأحاول من أجلها ومن أجلي أنا، وربما لأجل العالم. إن كتابة سيرة حياة فكرة لا بأس بها؛ فمن شأنها أن تكون أكثر جدوى لها ولبلدنا إذا ما استطعت مساعدتها على تحسين أدائها.

فكرت في عقلي مليًّا بالأسباب المحتملة الكامنة وراء درعها السايكولوجي الصلب غير القابل للاختراق، وافترضت أنها عاشت تجارب مؤلمة إبان الطفولة وبعدها، تجارب لا تطيق تذكرها، فتُسقطها على العالم الخارجي؛ حين تتناول مشكلات تهز كوكب الأرض على المستوى الفكري الخالص، فليست هيلاري التي تتألم، بل سائر نساء العالم وأطفاله الذين يعانون سوء المعاملة، تعيش هيلاري برأسها لا بقلبها، وتصر على صون ما تطلق عليه اسم (خصوصيات) عن حياتها الداخلية.

أقدمت هيلاري أخيرًا على كسر الصمت دافعة رأسها إلى الخلف، قالت: إنني أنبذ العاطفة الخالية من التفكير تمامًا؛ أجدها مثيرة للشفقة، في الحقيقة.

ارتعت وارتعبت؛ فالإنسان الذي لايعيش لمشاعره أكثر إثارة للشفقة بما لا يقاس، كما أرى – ونظرًا إلى ذلك الموقف غير القابل للتغيير على ما يبدو – فإن هيلاري كلنتون كانت – كما قررت – بعيدة عن المرشحة المثالية بالنسبة إلى المحللين النفسيين.

بنوع من اليأس قلت: لنحاول، سأساعدك على إتقان فن تحمل مشاعرك المؤلمة.

عادت الدموع تتدحرج على وجنتيها من جديد؛ أبعدت رأسها عني، ومسحت الدموع بسرعة بظاهر يدها: لست واثقة من قدرتي على ذلك.

قلت: لا يا هيلاري، من الأشياء كلها التي قرأتها وشاهدتها عنك، أعرف مدى شجاعتك واستقامتك؛ عايشتِ أسوأ أنواع الفضائح، أساءت وسائل الإعلام إليكِ كما لم يسبق لها أن فعلت مع أي سيدة أولى أخرى، غير أنك

نجوت مع ذلك، وعلى نحو جيد تمامًا. أعرف أنك تستطيعين أن تنتصري على هذا التحدي أيضًا.

بغتة انتصبت واقفة: ثمة إشاعة تقول إنك ستكونين في واشنطن مدة سنة، أفترض أنك ستستقبلين مرضى (زبائن) وأنت هناك؟ أومأتُ غير أنني لم أبلغها بعدم اعتزامي متابعة ممارسة متفرغة في أثناء وجودي في واشنطن، وإن كنت مستعدة –بالتأكيد– لاستثنائها. تابعتْ: أريد المغادرة الآن، وأنا بحاجة إلى إعادة التفكير بما إذا كنت راغبة في هذا.

صُدمت بآنيَّة قرارها المباغت، متصورة أنني أفسدت المقابلة التمهيدية، قلت: بالتأكيد يا هيلاري. أرجو أن تتصلي بسكرتيرتي إذا رغبت في تحديد موعد آخر، سأكون هنا أسبوعًا آخر، وريفكا ستستلم الرسائل بعد مغادرتي.

بخطوات متسرعة مشت إلي، ثم فاجأتني إذ وقفت، دارت إلى الخلف وابتسمت.

قلت محدثة نفسي: قد تعود آخر المطاف.

وبعد مغادرتها فكرت بما تعلمته من وسائل الإعلام عن شخصية هيلاري كلنتون، عن سلوكها المحيِّر أحيانًا، وعن مدى قابلية مقارنة ذلك بما كنت قد رصدته إبان الجلسة التمهيدية المختصرة. جُل ما رأيته للتو عنها كان مؤكدًا لما قرأته، مع أن علي أن أعترف أنني وجدتها جذابة أكثر مما صُورت في كثير من وسائل الإعلام؛ أعرف أنها ذكية، قرأت في أحد الأماكن أن لديها طاقة هائلة أتعبت أعضاء فريق عمل أكثر شبابًا بكثير. تعالوا نفكر بالأمر، أنا نفسي كنت أيضًا متعبة إلى حد كبير، ولم أرها إلا جلسة واحدة مدتها قصيرة!.

بحسب التقارير جميعها، قابليتها التنظيمية والقيادية غير مسبوقة، طموحاتها كبيرة على الصعيدين السياسي والمهني، لعلها أكبر – بالتأكيد – مما قد تعترف به، كذلك لاحظت أنها استثنائية الكاريزمية حين تختار أن

تكـون، مشـهورة هي بعمق التديـن، وقوية الالتزام بعائلتهـا. تأثرت مرات كثيرة بمـدى مـا لديهـا مـن حب لزوجهـا وابنتهـا، أقلـه كما يتجلـى في أفـلام الفيديو والصـور، قـدرت أن حبها لعائلتها هو الشـعور الأقوى الذي يمكنها أن تعترف به من دون تردد.

أمـا الجانـب الأكـثر قتامة فقـد كان معروفًـا أيضًـا – أقله عن طريق وسـائل الإعلام – أنها عصبية ومتكررة سَورات الغضب، وهي محاربة متكررة الانهزام أمـام القلق، وأنهـا ضحية زوج دائم المغامرات الغرامية، وبوصفها كاسـبة قوت العائلـة ربمـا دوَّرت بعض الزوايا الأخلاقية في أوقات معينة للحصول على دولار أو اثنـين إضافيـين. وعلـى الرغـم من أن كثيريـن يحبونها فإن ذلـك يصعب أن يكون صحيحًا عبر الطيف كله.

إجمـالًا، امـرأة بالغة الإثارة كما أرى، مع أن فرويد نفسـه كان من شـأنه أن يعاني لو عالجها.

obeikandl.com